

التفسير المطول - سورة التوبة ٠٠٩ - الدرس ( ٧٠-٧٠ ) : تفسير الآيات ١٢٨ - ١٢٩ ، اختار الله الأنبياء من صفوة البشر، وعلى الإنسان أن يؤدي الذي عليه ويترك لله الذي له.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠١١-٠٩-١٦

### بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آل بيته الطيبين الطاهرين، وعلى صحابته الغر الميامين، أمناء دعوته، وقادة ألويته، وارضَ عنا وعنهم يا رب العالمين، اللهم أخرجنا من ظلمات الجهل والوهم إلى أنوار المعرفة والعلم، ومن وحول الشهوات إلى جنات القربات.

**النبي بشر خصائصه كخصائصنا لكنه انتصر على بشريته فكان سيد البشر :**

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس السبعين والأخير من دروس سورة التوبة، ومع الآية الثامنة والعشرين بعد المئة وما بعدها، وهي قوله تعالى:

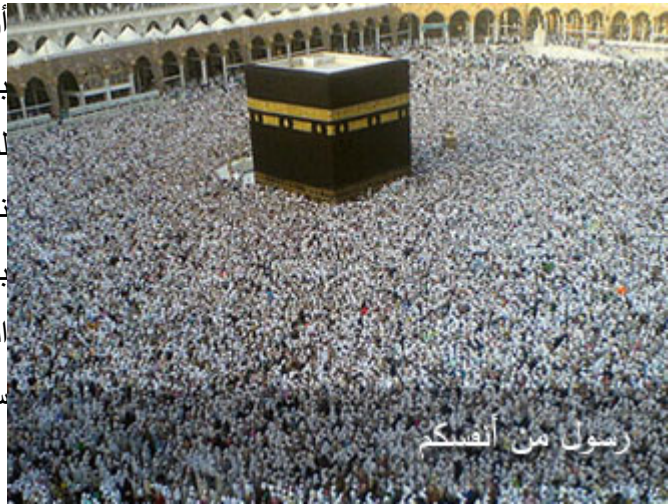
( لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ )

والتي بعدها:

( فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ )

أيها الأخوة، هناك حقائق لا بد من أن أبدأ بها، كي تلقي ضوءاً على هذه الآيات.

أولاً: لولا أن النبي صلى الله عليه وسلم بشر، تجري عليه كل خصائص البشر، لما كان سيد البشر، إنه يخاف كما نخاف، ويشتهي كما نشتهي، لولا أنه بشر، وتجري عليه كل خصائص البشر، وانتصر على بشريته، لما كان سيد البشر.



( قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ )

[ سورة الكهف الآية: ١١٠ ]

لأنه بهذه الطريقة تقوم الحجة علينا، النبي عليه الصلاة والسلام بشر خصائصه كخصائصنا، أحواله كأحوالنا، لكنه انتصر على بشريته وسما إلى ربه فكان سيد البشر، في بعض الأحاديث:

((وَأُذِيتَ فِي اللَّهِ مَا لَمْ يُؤَدِّ أَحَدٌ، وَلَقَدْ أَتَى عَلَيَّ ثَلَاثُونَ مِنْ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، وَمَالِي وَلِبْلَابُ طَعَامٍ إِلَّا شَيْءٌ يُؤَارِيهِ إِبْطُ بِلَالٍ))

[أخرجه الترمذي عن أنس بن مالك]

أثناء القطيعة، فلولا أن النبي صلى الله عليه وسلم بشر، وتجري عليه كل خصائص البشر لما كان سيد البشر.

((وَأُذِيتَ فِي اللَّهِ مَا لَمْ يُؤَدِّ أَحَدٌ، وَلَقَدْ أَتَى عَلَيَّ ثَلَاثُونَ مِنْ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، وَمَالِي وَلِبْلَابُ طَعَامٍ إِلَّا شَيْءٌ يُؤَارِيهِ إِبْطُ بِلَالٍ))

حرص النبي على هداية البشر :

( لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ )

هناك ملمح دقيق في قوله تعالى:

( لَقَدْ جَاءَكُمْ )

أي هو حريص على هداية الخلق:

( أَلَمْ تَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ )

[سورة الشرح]

حينما جاءتك الرسالة، ورأيت أن معك منهج الله، ولعلك بهذا المنهج تنقل الناس من الظلمات إلى النور، فالنبي عليه الصلاة والسلام بشر، وتجري عليه كل خصائص البشر، إذاً هو سيد البشر.

( لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ )

هو بشر، وفضلاً عن ذلك هو من هذه الأمة، وفضلاً عن ذلك هو من قريش، تعرفون أمانته، وصدقه، وعفافه، ونسبه، تعرفون ماضيه، تعرفون أخلاقه، تعرفون أنه صادق أمين، فهل يعقل أن يكون مؤتمناً عندكم ولا يكون مؤتمناً على وحي السماء؟ إذاً هذه الآية:

( لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ )

للنبي الكريم خصوصية جعلته مصداقاً في قومه :

أخوتنا الكرام، الله عز وجل قال:

( وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِنَّا أَنْقَلْنَا إِلَيْهِمُ الْبُرْجَانَ مَلَكًا رَسُولًا )

[سورة الإسراء]

وهذا الأصل أن يكون منكم، من البشر، من خصائصكم.

( قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْسُونَ مَطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا )

[سورة الإسراء]

إذا الدعوة للملائكة الرسول ملك، الدعوة للبشر الرسول بشر.

إذاً:

( لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ )

أولاً: من بني البشر، وتجري عليه كل خصائص البشر، وثانياً: من الأمة العربية، بلغتكم، ومن بلدتكم، من مكة، ومن قريش، أي هناك خصوصية كبيرة جداً جاءت عند النبي الكريم لتكون مصداقته عالية عند قومه.

أيها الأخوة، إذاً:

( قُلْ لَوْ كَانِ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْنُونُ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا )

إذا ينبغي أن نعلم علم اليقين أن هناك خصوصية لهذا النبي الكريم جعلته مصداقاً في قومه.

**الله عز وجل اختار أنبياءه من صفوة البشر ليبلغوا رسالته :**

لكن هناك نقطة دقيقة جداً، هذه النقطة أن الله سبحانه وتعالى حينما جعل الفقراء والضعفاء يؤمنون به، ولو بادر إلى الإيمان به الأقوياء، والأغنياء، والسلاطين، الأمر كان فيه مشكلة، أما جعل الفقراء وبعد الفقراء سار إليه الأقوياء.

إذا دعوته دعوة لبني البشر، الشيء الدقيق:

( لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ )

لماذا الله ما قال؟ لقد أرسلت إليكم،

( جَاءَكُمْ )

النقطة الدقيقة أن النبي الكريم لمجرد أن جاءت الرسالة بادر من تلقاء نفسه لنشر هذا الدين، الأنبياء اختارهم الله على علم، والدليل:

( إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ )

[سورة آل عمران]

هناك جدل طويل بين أن النبوة كسب أم اختيار، النبوة الله اختار أنبياءه ليبلغوا الرسالة لا شك، لكن كيف اختارهم؟ اختارهم من صفوة البشر، هناك شيء بالنبوة كسبي، وشيء وهبي، شيء وهبي أن الله اصطفاهم ليكونوا أنبياء، لم اصطفاهم ولم يصطف غيرهم؟.

( وَلَقَدْ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ )

[سورة الدخان الآية: ٣٢]

( إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ )

أنت أردت أن تعطي طالباً مكافأة كبيرة جداً، تختار من الطلاب؟ الأول، المتفوق، فهذه الهدية ليست من صنع الطالب، جاءت مكافأة، هي وهبية، لكن لماذا أعطيت لهذا الطالب؟ لأنه مجتهد.

فللنبوة جانب وهبي الأصل، لماذا اختار الله هذا الإنسان ليكون نبياً؟ اختاره على علم، اختاره لتفوقه، لمحبتته.

إذاً هذا الإشكال الأول:

### ( لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ )

من هذه الأمة، يتكلم بلغتكم، وقد نشأ بينكم، وتعرفون صدقه، وعفاه، ونسبه، ولا أقل من أن أروي موقف النجاشي من سيدنا جعفر لما النجاشي سأل سيدنا جعفر عن هذا الدين، وعن النبي الكريم:

**((أيها الملك كنا قوماً أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف، فكنا على ذلك، حتى بعث الله إلينا رسولاً منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفاه))**

[أخرجه ابن خزيمة عن جعفر بن أبي طالب]

إن حدثك فهو صادق، إن عاملك فهو أمين، إن استثيرت شهوته فهو عفيف.

### **((نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفاه))**

وكأن هذه الصفات الثلاثة أركان الأخلاق، بالتعاون المادي أمين، بالتعامل العاطفي عفيف، من حيث النسب نسبه من أعلى مستوى.

### **((نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفاه))**

إن حدث فهو صادق، إن عاملته بالدرهم والدينار فهو أمين، إن استثيرت شهوته فهو عفيف، وفضلاً عن ذلك النسب.

## لا قيمة للنسب من دون إيمان :



لكن موضوع النسب يحتاج إلى وقفة متأنية، إذا قلنا: أبو لهب عم النبي، أي أقرب إنسان للنبي أبو لهب، قال تعالى:

**( تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ )**

[سورة المسد]

فالنسب لا معنى له، ولا قيمة له إلا مع الإيمان، فإذا كان صاحب النسب مؤمناً جاء النسب تاجاً له، النسب يعد تاجاً لا فرق بين عربي وأعجمي وأبيض وأسود إلا بالقوى للمؤمن بعد إيمانه، أما من دون إيمان.

**( تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ \* مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ )**

[سورة المسد]

الآن يقابلها:

## ((سلمان منا أهل البيت))

[أخرجه الحاكم عن مصعب بن عبد الله الزبيري]

منا؟ سلمان فارسي، صهيب رومي.

(( نعم العبد صهيب لو لم يخف الله لم يعصه ))

[كنز العمال عن عمر]

( يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ )

[سورة الحجرات الآية: ١٣]

إذا:

( لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ )

من هذه الأمة العربية.

الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر علة خيرية هذه الأمة :

بالمناسبة الله عز وجل حينما قال:

( كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ )

[سورة آل عمران الآية: ١١٠]

هذا كلام خالق الأكوان،

( كُنْتُمْ )

قال علماء اللغة: معنى كنتم هنا أي أصبحتم، أصبحتم بهذه الرسالة خير أمة أخرجت للناس، لقد اختار الله هذه الأمة لتكون وسطاء، أي وسطاء بينه وبين

خالقه، لكن الأمة العربية الآن لعلها غفلت عن هذه الأمة التي شرفها الله بها، أن تكون هذه الأمة وسيطاً بين الله وبين عباده،

( كُنْتُمْ )

أي أصبحتم، بهذه الرسالة خير أمة أخرجت للناس، ما علة هذه الخيرية؟ قال:

( تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ )

[سورة آل عمران الآية: ١١٠]

دقق لو تصورنا أن الأمة الآن العربية تركت الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فقدت خيرتها، وأصبحت أمة كأية أمة خلقها الله، لا شأن لها عند الله، هناك آية تشير إلى هذا؟

## ( بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلِقَ )

[سورة المائدة الآية: ١٨]

### تبدل القيم في الزمن الحاضر :

هذه الأمة لمجرد أن تتخلى عن رسالتها وهي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أصبحت كأية أمة خلقها الله، لا شأن لها عند الله، لكن خيريتها بالأمر بالمعروف، من هنا قال النبي الكريم:

**((كيف بكم إذا لم تأمروا بالمعروف ولم تنهوا عن المنكر؟ قالوا: يا رسول الله وإن ذلك لكائن؟ قال: نعم، وأشد، كيف بكم إذا أمرتم بالمنكر ونهيتم عن المعروف؟ قالوا: يا رسول الله وإن ذلك لكائن؟ قال: نعم، وأشد كيف بكم إذا رأيتم المعروف منكراً والمنكر معروفاً؟))**

[أخرجه زيادات رزين عن علي بن أبي طالب]

هذا تبدل قيم، أنا كنت أروي للطلاب أهجا بيت قالتها العرب، ودخل شاعره في عهد سيدنا عمر السجن لهذا البيت، ما هذا البيت؟ قال:

**دع المكارم لا ترحل لبغيتها واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي**

\*\*\*

هذا البيت الذي يعد أهجا بيت قالتها العرب هو في الحقيقة شعار معظم الناس اليوم.

**دع المكارم لا ترحل لبغيتها واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي**

\*\*\*

إذا:

**( كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ )**

[سورة آل عمران الآية: ١١٠]

فإذا كفت الأمة عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أصبحت كأية أمة خلقها الله.

### من طبق سنة النبي في حياته فهو في مأمن من عذاب الله :

هناك دليل آخر و هو قوله تعالى:

**( وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ )**

[سورة الأنفال الآية: ٣٣]



طبعاً الآية في عهد النبي لها معنى واضح، ما دام النبي بين ظهرانيهم فهم في مأمن من عذاب الله، لكن ما معنى الآية بعد انتقال النبي إلى الرفيق الأعلى؟ هنا الشاهد، قال العلماء: ما دامت سنة النبي مطبقة في حياتهم، في حركاتهم، وسكناتهم، في كسب أموالهم، في إنفاق أموالهم، في علاقتهم الاجتماعية، ما دامت سنة النبي صلى

الله عليه وسلم مطبقة في حياتهم فهم في مأمن من عذاب الله، ضماناً، مستحيل وألف ألف مستحيل أن تعذب الأمة الإسلامية وهم يطبقون منهج رسول الله.

( وَمَا كَانَ )

هذه ما كان نفي الشأن، أشد أنواع النفي في اللغة صيغة ما كان، قال بعضهم: هناك نفي الحديث، ونفي الشأن، تسأل إنساناً هل أنت جائع؟ يقول لك: لا، قل لإنسان محترم جداً: هل أنت سارق؟ لا يكفي أن يقول لا، يقول: ما كان لي أن أسرق، هذا مستحيل وألف مستحيل، لا أقر، ولا أرضى، ولا أسكت، ولا، ولا، ولا، ممكن أن تنفي بهذه الصيغة اثني عشر فعلاً:

( وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ )

أمة تطبق منهج النبي تُعذب؟ مستحيل.

**على الإنسان أن يطمئن لوعد الله عز وجل :**

مرة النبي عليه الصلاة والسلام أردف معاذ بن جبل خلفه على الدابة، قال له يا معاذ: ((ما حقُّ الله على العباد؟ قال: قلت: الله ورسوله أعلم، قال: فإن حقَّ الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، فسكت النبي قليلاً- وجاء السؤال الثاني- ما حقُّ العباد على الله إذا فعلوا ذلك؟ قلت: الله ورسوله أعلم، قال: - والله هذا الكلام أقوله لكم وفيه أكبر طمأنينة للمؤمن- حقُّ العباد على الله ألا يعذبهم))

[أخرجه البخاري عن معاذ بن جبل]

يجب أن تكون مطمئناً لوعد الله، هذا يؤكد قوله تعالى:

( قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا )

[سورة التوبة الآية: ٥١]

مرة سيدنا أبو ذر قيل له: احترق محللك، قال: ما كان الله ليفعل، يا أخي احترق، قال لهم: ما كان الله ليفعل، فلما ذهبوا إلى الدكان وجدوا دكان جاره وليس دكانه.

أنا أتمنى أن يكون عند المؤمن ثقة بوعده الله عز وجل، وعده بالتوفيق، لذلك أنا أقول دائماً: إذا كان الله معك فمن عليك؟ وإذا كان عليك فمن معك؟ ويا ربي ماذا فقد من وجدك؟ وماذا وجد من فقدك؟

### معية الله لها ثمن و هو التفكير في خلق السموات والأرض :

إذا كان الله معك ليس على وجه الأرض جهة تستطيع أن تنال منك، الله معك، لكن هذه المعية لها ثمن.

( وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا )

[ سورة المائدة الآية: ١٢ ]

من هنا في الأثر القدسي:

(( ليس كل مصلِّ يصلي، إنما أتقبل الصلاة ممن تواضع لعظمتي ))

[ أخرجه الديلمي عن حارثة بن وهب ]

أي فكر في خلق السموات والأرض، عرف عظمة الله.

### على الإنسان أن يؤمن بالله الإيمان العظيم :

دقق في هذه الآية:

( إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ \* وَلَا يَحْضُ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ )

[ سورة الحاقة ]

إبليس آمن بالله، الدليل:

( قَالَ فَبِعِزَّتِكَ )

[ سورة ص الآية: ٨٢ ]

قال له:

( خَلَقْتَنِي )

[ سورة الأعراف الآية: ١٣ ]

آمن بالله خالقاً، رباً، و

( بِعِزَّتِكَ )

عزيزاً.

( أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ )

[ سورة الأعراف ]



آمن بالآخرة، ومع ذلك هو إبليس اللعين، لكن إبليس ما آمن بالله العظيم، لهذا يقول الله عز وجل:  
( مَا لَكُمْ لَّا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً )

[سورة نوح]

يجب أن تؤمن بالله العظيم.

النبي بأعلى درجة من الكمال فهو نبراس للناس و قدوة :

إذا الآية الكريمة:

( لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ )

يوجد قراءة من أنفسكم، قراءة تغني  
المعنى أحياناً، بأعلى درجة من الكمال،  
لكن الذي يقول: إن الكون خلق من أجل  
محمد، هذه شطحة، لكني أقول: إن  
الكون خلق ليكون الناس فيه على شاكلة  
محمد، خلق البشر ليكونوا على شاكلة  
محمد، ليكون هو نبراساً لهم و قدوة.



ليكن الرسول قدوتنا في كل شيء

( لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً )

[سورة الأحزاب]

إذا:

( لَقَدْ جَاءَكُمْ )

لماذا لم يقل أرسلته إليكم؟ النبوة وهيبة، وكسبية، لولا أنه تفوق في معرفة الله، تفوق في طاعته،  
تفوق في محبته، لما استحق هذه الرسالة، بهذا المعنى.

منهج الله جاء لخير الناس و سعادتهم و سلامتهم :



لذلك الشيء الذي يلفت النظر أن السيدة  
خديجة لما جاءها النبي وقد جاءه  
الوحي- أنا الآن أعجب لم ينزل في  
القرآن الكريم آية- أول ما جاءه الوحي:

تفسير الآيات ١٢٨ - ١٢٩، اختار الله

الإيمان طريق السعادة

## ( اقرأ )

[ سورة العلق ]

قالت له:

**((فوالله لا يُخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم،  
وتقري الضيف، وتعين على نوابي الحق))**

[أخرجه البخاري ومسلم عن عائشة أم المؤمنين]

كيف ربطت بين الرسالة بين الكمال الذي هو فيه؟

**((فوالله لا يُخزيك الله أبداً))**

الآن لم ينزل قرآن بعد، و ليس هناك نصوص نبوية.

**((وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوابي الحق))**

إذاً:

**( لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ )**

أي إذا كان هذا المنهج يتعبكم فهذا شيء يؤلمه، جاء لخيركم، جاء لسعادتكم، جاء لسلامتكم.

## طلب الجنة بلا عمل ذنب من الذنوب :

لكن الله عز وجل قال:

**( وَلَنذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَلِيمِ لَأَنَّكَ كَفَرْتُمْ أَكْبَرَ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ )**

[ سورة السجدة ]

أخواننا الكرام، الأب، الأم، العالم أحياناً يشتد على ابنه المقصر، هذه الشدة لصالحه، وأنا أقول دائماً: كل شدة وراءها شدة إلى الله، وكل محنة وراءها منحة من الله، فإذا قسا لأب على ابنه وصار طبيياً، أو ذا منصب رفيع، وعاش حياة سعيدة في تألق، هذا عاد الخير عليه.

إذاً:

**( لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ )**

أي يؤلمه أن هذا الشرع فيه مشقة، لا، لكن أنت مخلوق للجنة، والجنة تحتاج إلى جهد، وأي شيء بلا ثمن مستحيل.

أنا أقول دائماً وهذه الكلمة أذكرها كثيراً: حتى يضع إنسان حرف د. قبل اسمه، فقط د. يعني دكتور، أي معه شهادة ابتدائية، وشهادة إعدادية، وشهادة ثانوية، ولسانس، أو بكالوريوس، ودبلوم عامة، ودبلوم خاصة، وماجستير، ودكتوراه، أي درس ثلاثاً و ثلاثين سنة حتى يكتب د. . وأنت مؤمن أنت وعدك الله بجنة عرضها السموات والأرض تريدها بلا جهد؟ لذلك طلب الجنة بلا عمل ذنب من الذنوب، أنت تستطيع أن تقدم لجامعة كبيرة عريقة طلباً أنه يرجى منحى دكتوراه ولا يوجد معك ابتدائية أمي، ممكن؟ لا يوجد شيء بلا ثمن.

لذلك هنا:

( لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ )

ومن أنفسكم،

( عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ )

أي هو يرضى لكم السعادة، لكن السعادة لها ثمن، أنت في دار عمل. لو أن طالباً في أثناء العام الدراسي كان له مقعد على النافذة، ومعه شطائر يأكل ما يشاء أثناء الدرس، وموالمح، ومشروبات، وعصائر، وشاي، وقهوة، ولم ينتبه للدرس إطلاقاً، شأنه كشأن الناس الآن، يعيش للدنيا فقط، نسي أن هناك جنة عرضها السموات والأرض، نسي اليوم الآخر. لذلك مرة شيعت أحد الأخوة الكرام، توفاه الله، لما وضعوه في القبر، ووضعوا الحجر الكبير فوق فتحة القبر، ثم أهالوا التراب، والله الذي لا إله إلا هو ما وجدت على ظهر الأرض إنساناً أعقل ولا أدكى ممن يعمل لهذه الساعة، من قصر، من بيت أربعمئة متر، إلى قبر، من زوجة، أولاد، أصهار، كنانن، ولائم، سفريات، رحلات، دعوات، إلى قبر، ماذا في القبر؟ لذلك قال تعالى هو:

( الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا )

[سورة الملك الآية: ٢]

بدأ بالموت لماذا؟ لأن الإنسان حينما يولد أمامه خيارات لا تعد ولا تحصى، أما إذا جاءت المنية فأمام خيارين لا ثالث لهما.

(( فو الذي نفس محمد بيده ما بعد الدنيا من دار إلا الجنة أو النار ))

[الجامع الصغير عن حمزة بن حمران]

( لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ )

( عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ )

بؤلمه أن تتوهموا أن هذا الشرع فيه قيد عليكم، لا، هذا قيد رحمة.

دقق، هذا المثل أنا وضعته: لو أن طالباً قال لأبيه: أريد ألا أدرس، قال له: كما تشاء، ثاني يوم لا يوجد وظائف، ولا



مدرسة، ولا دوام، نام للظهر، راح على السينما، اعتقد أنه أسعد طالب بالأرض، لا يوجد عنده واجب إطلاقاً، أما عندما كبر لا وظيفة، ولا تجارة، ولا زواج، ولا شيء، حقد على أبيه، قال له: يا أبت لما قلت لك لا أريد أن أدرس لم لم تضربني؟ الآن دقق بالآية:

**( وَكُلُّوا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَهُمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ )**

[سورة القصص الآية: ٤٧]

فهذه المصائب التي تصيب البشر لولا أن الله أراد منها أن تكون رادعاً، أو باعثاً، الإنسان يوم القيامة يعتب على الله إن لم تكن هذه المصائب:

**( وَكُلُّوا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَهُمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ )**

[سورة القصص الآية: ٤٧]

**التراحم فيما بين الناس هو رحمة الله :**

**( عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ )**

لذلك قالوا: أرحم الخلق بالخلق هو رسول الله، أرحم الخلق بالخلق، وأنا أذكر قصة رمزية أن أحد الأنبياء مشى في الطريق، رأى أمّاً تضع رغيفاً في التنور، وتأخذ ابنها تضمه وتشمه، فقال: يا ربي! ما هذه الرحمة؟ فانه أخبره أن هذه رحمتي، أودعتها في قلب أمه وسأنزعها، فلما نزع الله الرحمة من قلب أمه بكى فألقته في التنور، فالتراحم فيما بين الناس هو رحمة الله، رحمة الله أودعها في قلب الأمهات والآباء، لذلك الآية الكريمة:

**( وَالْفَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي )**

[سورة طه الآية: ٣٩]

أنا أقول: محبة الأب والأم لابنهما هي محبة الله له جعلها في قلب الأم والأب. أيها الأخوة، هذه الأمة كانت رعاة للغنم، بفضل هذه الرسالة أصبحت قادة للأمم، من رعاة للغنم إلى قادة للأمم. أيها الأخوة الكرام،

**( حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ )**

**قانون الالتفاف و الانفضاض :**

الآن دققوا قال تعالى:

**( فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ )**

[سورة آل عمران الآية: ١٥٩]



هذه الباء باء السبب، أي يا محمد بسبب  
رحمة اشتقتها من الله من خلال  
اتصالك بنا، يا محمد هذه الرحمة التي  
في قلبك، والتي اشتقتها منا بسبب  
اتصالك بنا،

( فِيمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ )

كنت ليناً لهم، فلما كنت ليناً لهم التفوا  
حولك، الآن لو كنت منقطعاً عنا، لامتلأ  
قلبك قسوة، وهذه القسوة تنعكس مع

التعامل مع الناس غلظة وشدّة، عندئذٍ ينفض الناس من حولك، وكان هذه الآية قانون الالتفاف  
والانفضاض، يحتاجها الأب، تحتاجها الأم، يحتاجها المعلم، يحتاجها المرشد، أي إنسان على وجه  
الأرض يحتل منصباً قيادياً يحتاج هذه الآية:

( فِيمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لَئِنَّ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ  
لَهُمْ )

[سورة آل عمران الآية: ١٥٩]

لذلك:

( لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ )

الهدى قرار ذاتي لا بد للإنسان من أن يأخذه :

لذلك قال النبي الكريم:

((إنما مثلي ومثل الناس، كمثل رجل استوقد ناراً، فلما أضاءت ما حوله، جعل الفراش وهذي  
الدواب، التي تقع في النار، تقع فيها، فجعل ينزعهن ويغلبهن، فيتفحمن فيها فإنا أخذ بحجزكم عن  
النار، وأنتم تفحمون فيها))

[أخرجه البخاري ومسلم والترمذي عن أبي هريرة]

هذا بالضبط الواقع، النبي الكريم برويته وعلو مقامه هدفه الأول أن ينجي أمته من النار،

( فَإِنْ تَوَلَّوْا )

أي:

( إِنْ عَلَيْكَ إِنْآ الْبَلَاغُ )

[سورة الشورى الآية: ٤٨]

ما أنت عليهم بحفيظ.

( وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ )

[ سورة الزمر ]

( لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ )

[ سورة البقرة الآية: ٢٧٢ ]

هذا الهدى قرار ذاتي لا بد من أن يأخذه الإنسان.

على الإنسان أن يؤدي ما عليه و يطلب من الله الذي له :

( فَإِنْ تَوَلَّوْا فَعَلَّ حَسْبِيَ اللَّهُ )

أدبت الذي عليك، اطلب من الله الذي لك، لذلك لا يستطيع لا نبي، ولا رسول، ولا داعية كبير أن ينقل الهدى إلى الناس، فالناس مخيرون، هذا الإنسان يقبل أو لا يقبل، والدليل دقق:

( وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ )

[ سورة الشورى ]

هذه آية، الثانية:

( لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ )

عجيب!

( وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ )

ثم هناك آية أخرى:

( لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ )

معنى ذلك الهدى قرار ذاتي إذا اتخذته الإنسان كل شيء في الأرض وفي الكون يدلله على الله، أما إن لم يتخذ هذا القرار، لو كان هناك قاعدة فضائية يرى المجرات بعينه من خلال التلسكوبات، لو كان على مجهر إلكتروني يرى الخلية، لو كان هناك أكبر مركز علمي، يرى كل شيء، هذه الأشياء لا تقدم ولا تؤخر، الهدى لا بد من أن تتخذ قراراً ذاتياً لطلب الحقيقة، عندئذ كل شيء يدلك على الله.

( فَإِنْ تَوَلَّوْا فَعَلَّ حَسْبِيَ اللَّهُ )

مرة فيما أذكر أخذ خلفاء بني أمية ولعله آخر خليفة صعد المنبر ليخطب قبل صلاة العيد، بخلاف السنة، يبدو أنه لم يكن محبوباً فكان الناس إذا صلوا العيد انصرفوا إلى بيوتهم، صعد المنبر ليخطب قبل الصلاة، هكذا قرأت القصة، أحد الجالسين أمسكه من ثوبه- للخليفة- قال له: هذا ما فعله النبي الكريم، لكنه لم يعبأ به وتابع الصعود وخطب، قال أحد الحاضرين: أما هذا فقد أدى الذي عليه. أنا أقول دائماً: أد الذي عليك، واطلب من الله الذي لك، أد الذي عليك من طاعة واطلب من الله الذي لك.

( فَإِنْ تَوَلَّوْا فَعَلَّ حَسْبِيَ اللَّهُ )

أنا أدبت الذي علي، أحياناً أنا أقول لإنسان يستنصحنني في علاقته بأبيه، قد يكون أبوه قاسياً جداً، أقول له: أدّ الذي عليك، واطلب من الله الذي لك.

من لم يؤمن بالله العظيم فالطريق إلى الله ليس سالكاً :

( فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا  
هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ  
الْعَظِيمِ )  
( رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ )

ما لم تؤمن بالله العظيم فالطريق إلى الله  
ليس سالكاً،

( مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً )

أنت إذا تفكرت في خالق السموات

البعد عن الله يوصل لطريق مظلم ومسدود

والأرض أمنت بالله العظيم.

من بعض المعلومات البسيطة: بين الأرض وبين أقرب نجم ملتهب عدا الشمس أربع سنوات ضوئية، والضوء يقطع في الثانية الواحدة ثلاثمئة ألف كيلو متر، في الدقيقة ضرب ستين، بالساعة ضرب ستين، باليوم ضرب أربع وعشرين، بالسنة ضرب ثلاثمئة وخمسة وستين، بأربع سنوات ضرب أربع، ابنك الصغير بدقائق على آلة حاسبة يحسب لك كم تبعد الأرض عن أقرب نجم ملتهب لها عدا الشمس، أربع سنوات ضوئية، الآن لو أن هناك مركبة في الأرض، ويمكن أن تصل لهذا الكوكب سرعتها كسيارة عادية، مئة، تحتاج إلى خمسين مليون عام كي تصل إليها، خمسون مليون عام كي تقطع أربع سنوات ضوئية.

أخواننا الكرام نجم القطب يبعد عنا أربعة آلاف سنة ضوئية، المرأة المسلسلة المجرة تبعد عنا مليوني سنة ضوئية، أحدث مجرة اكتشفت حديثاً تبعد عنا أربعة وعشرين مليون سنة ضوئية، اقرأ قوله تعالى:

( فَلَا أَقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ \* وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ )

[سورة الواقعة]

( إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ )

[سورة فاطر]

إذا أردت الدنيا فعليك بالعلم، وإذا أردت الآخرة فعليك بالعلم، وإذا أردتهما معاً فعليك بالعلم، والعلم لا يعطيك بعضه إلا إذا أعطيته كلك، فإذا أعطيته بعضك لم يعطك شيئاً، ويظل المرء عالماً ما طلب العلم، فإذا ظن أنه قد علم فقد جهل.

طالب العلم يؤثر الآخرة على الدنيا فيربحهما معاً، بينما الجاهل يؤثر الدنيا على الآخرة فيخسرهما معاً.

هذا هو الدرس الأخير في سورة التوبة وأرجو لإخوتي المشاهدين التوفيق والنجاح.  
والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

**والحمد لله رب العالمين**